من حكايات الشعوب



حكاية عربية (تونس)

علي الحطاب

٦

من حكايات الشعوب

حكاية عربية (تونس)

رسوم .... محمود فهمي



علي الحطاب

دار الفتى العربي

عليٌّ رجلٌ حطّابٌ كان يعيشُ هو وزوجتُه في قريةٍ عند طرف غابة «عين دراهم» غربيَّ تونس. وقد قضى حياته حطاباً، فكان في شبابه قويًّا يقطعُ كمياتٍ كبيرةً من الخشب جعلته يعيشُ في يُسْرٍ، لكنه بعد أن شاخ أصبح يخرجُ في الصباحِ حاملاً فأسَهُ، فإذا وصل الغابةَ بلغها مُجْهَداً من السير، فيجمعُ حزمةً صغيرةً من الحطب يبيعها بما لا يكادُ يكفي ثمناً لطعامه هو وزوجته، بل إنهما في بعضِ الأيام كانا يقاسيان الجوعَ والبرد.

ذاتَ صيفٍ، خرج عليّ في يومٍ من الأيام كعادته، ومشى تحت الشمسِ المحرقة، فوصل الغابة وقد هدَّه التعبُ، فجلس ليستريحَ تحت ظلِّ شجرةِ سنديانٍ عند طَرَفِ الغابة.

وبعد قليل قام وتناول فأسَهُ، وتطلَّعَ إلى الشجرة التي كان يستريحُ تحت ظلها.

كانت جميلةً باسقةً كثيفةَ الأغصانِ وقد برزتْ بعضُ جذورها فوق الأَرض.

ورفع عليّ رأسه ليقطعَ بعضَ الفروعِ الدانية ، فقالت له الشجرة :

« مهلاً يا عليّ ، لماذا تبتُر أعضاءَ شجرةٍ عجوزٍ مثلي ؟ »

فردَّ عليّ ببساطة قائلاً :

« لأني في حاجة إلى الحطب ، وإذا لم آخذ حطباً ، فإني لن أَجدَ طعاماً أنا وزوجتي . » فقالت الشجرة : « إذا كان الطعام هو كلّ ما تحتاجُ ، فلا تُجْهِدْ نفسك بِقَطْعِ فروعي . دُرْ حولَ جذعي من الناحية اليمنى ، وستجدُ حفرةً بين الجذور ، فإذا مددتَ يدك فيها وجدت طاحونةً صغيرة . خذها إلى بيتك ، فإذا احتجتَ طعاماً ، فقل لها انت وزوجتك : « دوري دوري ، وسترى ما سوف يحدث . »

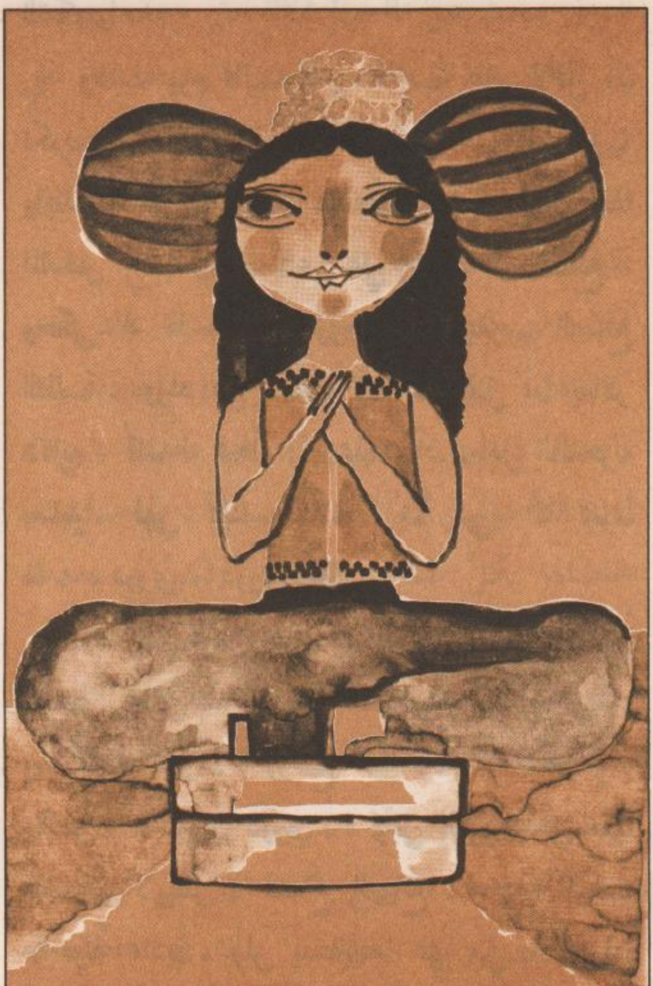
عثر عليّ على الحفرة ووجد فيها الطاحونةَ ، فأخذها وأسرع إلى بيته .

في البداية ، نظرت اليه زوجته باحتقار وقالت : « ما فائدةُ الطاحونةِ إذا لم يكن عندنا ما نطحنه ؟ »

ولكن عندما أفهمها أنها طاحونة سحرية ، أسرعت لتجربها ، فأحضرت جلدَ غنمٍ نظيفاً ومدَّته على الأرض ، ووضعتِ الطاحونةَ ، ثم صاحت هي وعليّ معا : « دوري ، دوري . » وعلى الفور بدأتِ الطاحونةُ تطحن ، وتدفَّقَ منها سيلٌ غزيرٌ من أجمل ما رأيا في حياتهما من طحين حتى غطَّى الجلدَ الممدودَ بأكمله .

اغتبط عليّ وزوجته ، وطبخا لهما عشاء ، واطمأنا الى أنهما لن يحتاجا أبداً إلى الطحين .

وبعد شهور ، بدأت زوجته تشكو من أنَّ طاحونتها السحريةَ تبدو عاديةً ، وقالت لزوجها : « انها أثمنُ ما نملك ، لكنَّ مَنْ يراها لن يجدَ فيها شيئاً يميّزها . وتقديراً لما مَنَحَتْنا من سعادة ، يجبُ أن تُصنعَ من الذهب والفضة الخالصين . » فقال علي : « وماذا يَهُمُّنا من منظرها ؟ إنّ أيةَ طاحونةٍ مصنوعة من الذهب والفضة لن تقدّمَ لنا طحيناً من لا شيء . » مع ذلك لم تكُفَّ زوجته عن



الشكوى .

وذات يوم قالت له : « يجبُ على الأقلّ أن تكونَ لها حِلْيَةٌ ذهبية ، خُذْهَا إلى الصائغ ، واطلبْ إليه أن يصنع لها مِقْبَضاً ذهبياً بدلَ هذا المقبضِ الحديديّ . » أذعنَ عليّ وذهب إلى الصائغ ، وحكى له ما اقترحته زوجته . فاستغرب الصائغ الطلبَ ، وزاد من دهشته أن علياً قبل أن يغادرَ دكانه ، قال له فجأَة : « عليك أن تعاملَ الطاحونةَ بعنايةٍ ، فهي ثمينةٌ جداً ، وأهمُّ شيء ألَّا تقولَ لها : « دوري ، دوري . »

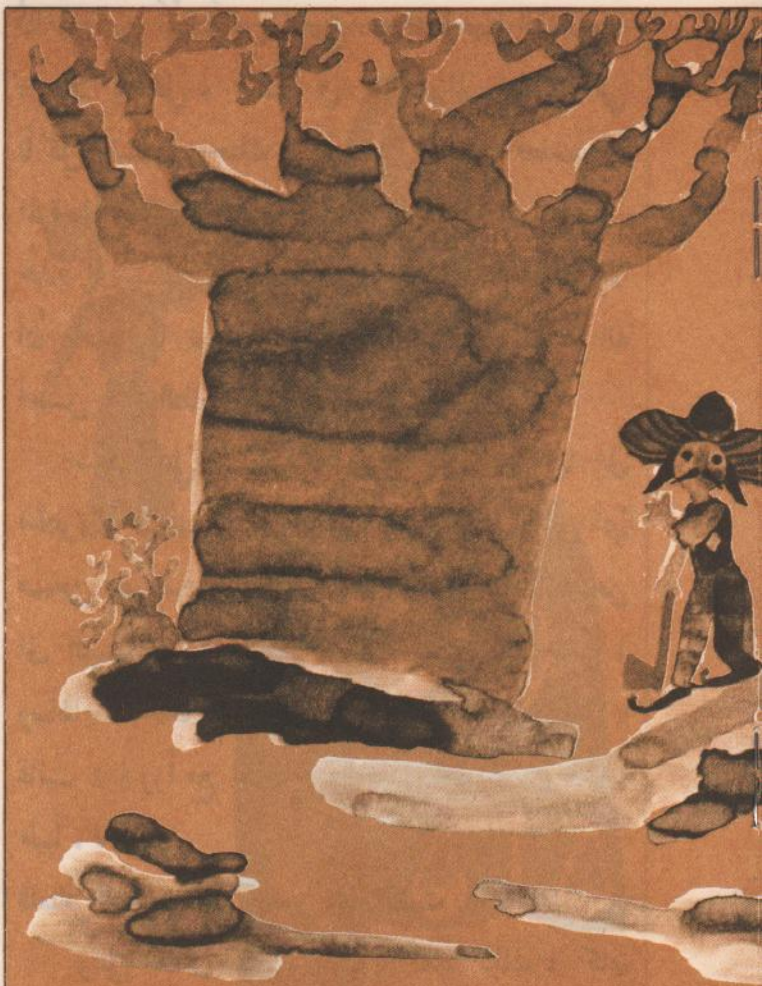
وما إن غادر عليّ الدكانَ حتى قال الصائغُ لنفسه : « لا بدَّ ان لهذه الطاحونة سراً سحرياً ، وسأكتشفه فوراً . » ووضع الطاحونةَ على مِنْضَدَةٍ ، وهمس : « دوري دوري . » وعلى الفور تدفَّقَ منها الطحينُ الأبيض ؛ فصاح الصائغ : « هذه ليست طاحونةً عاديةً ، ولن يستعيدها عليّ مني . » وأزاح الطحينَ جانباً ، وأخفى الطاحونة ، وانطلق إلى

السوق يبحثُ عن طاحونةٍ مماثلةٍ حتى وجدها ، فعاد إلى دكّانه وهيأ لها المِقْبَضَ الذهبيَّ . وعندما جاء عليّ في اليوم التالي سلَّمه الطاحونةَ الجديدة .

فلما رأتها زوجته ابتهجت بها وقالت : « ألا ترى كيف أصبحت جميلةً ؛ الآنِ سنستمتع بعشائنا أكثر من ذي قبل . وفي المساء بسطا جلدَ الغنم كالعادة ، ووضعا الطاحونةَ فوقه وصاحا بصوت واحد : « دوري ، دوري ! » فلم يحدثْ شيء . أدارا الطاحونة في كلّ اتجاه ، همسا لها ، صاحا فيها ، خاطباها بكلّ طبقات الصوت . لكنْ لم يحدثْ شيء . ضاعَ السحر .

وعاد عليّ وزوجته إلى الجوع . واضطرَّ عليّ إلى أن يستأْنفَ رحلاتِهِ الطويلةَ إلى الغابة ليحضرَ قليلاً من الحطب كلَّ يوم . إلا أنّ علياً عاد ذاتَ يوم إلى شجرة السنديان ، ورفع فأسه إلى أعلى ليهبطَ به على أحدِ فروعها ، وقال : « أنا في حاجةٍ إلى الحطب ، فالطاحونةُ لم تَعُدْ تعطينا طحيناً ، وأكاد





أنا وزوجتي نَهْلِكُ من الجوعِ . » فصاحت الشجرة : « مهلاً يا عليَّ ، لستَ في حاجة إلى إيذائي كي تأكُلَ انت وزوجتك . دُرْ حولي مثلما فعلتَ في المرة الماضية ، وفي الحفرة ستجد صحناً للطعام . خُذْهُ إلى بيتك . وعندما تريد طعاماً فما عليك إلَّا أنْ تأمره بما تريد ، وسيقدمه الصحن لك ، انه أحسنُ من الطاحونة . »

شكر عليّ الشجرةَ ، ودار حول جذعها إلى الحفرة ، فوجد الصحنَ ، ولم يكنْ يختلفُ عن أيّ صحن آخر من صحون الطعام . وعاد عليّ بالصحن الى البيت مسرعاً ليخبرَ زوجته بحظّهما الحسن ، وسألها ضاحكاً : « ماذا تريدين للعشاء الليلة ؟ » قالت : « رزاً مع الدجاج والخضر الجيدة ، وحساءًا طيباً . »

فامتلأَ الصحنُ على الفورِ بما طلبت .

وعلى مدى شهور كثيرة بعد ذلك ، كان أشقَّ ما يقوم به عليّ وزوجته من العمل هو أن



يحدّدا نوعَ الطعام الذي يريدانه .

ومع ذلك ، فقد عادت الخُيلاءُ تغزو قلبَ زوجته ، وطلبت إلى عليّ أن يحملَ الصحنَ إلى الصائغ ليزيّنه بالذهب والفضة . وحاول عليّ أن يَثْنيها عن رغبتها ، لكنها عَكَّرت عليه هدوءَ حياته بإلحاحِهَا ، فأخذَ الصحنَ إلى الصائغ ، وحكى له ما تريده زوجته ، وقبل أن يغادرَ الدكانَ حذَّره قائلاً : « لا توجّهْ كلمةً واحدةً إلى هذا الصحن ، وأهمُّ من كلِّ شيء ، إذا كنت تشتهي أيَّ لون من الطعام ، فلا تجعلِ الصحنَ يسمعك . »

ولم يكد عليّ يديرُ ظهره للصائغ ، حتى أغلق هذا بابَ دكانه ، ووضع الصحنَ على المنضدة وقال : « كم أشتهي أن آكل كباباً مثلَ الذي كانت تهيئه زوجتي قبل وفاتها . » امتلأ الصحن بالكباب وكان أطيب كثيراً من الذي كانت تهيئه زوجته ... عندئذ أخرج الصائغ الصحن الخاص به ، وكان

شبيها بصحن عليّ ، وزخرفه بالذهب والفضة . وتكررت مع عليّ وزوجته حكاية الطاحونة .

ومرة أخرى عاد عليّ إلى شجرة السنديان يلوّحُ بفأسه قائلاً : « سحرُك باطلٌ فهو لا يدوم . فقد أصاب الصحنَ ما أصاب الطاحونة ، وجوعنا الآن أقسى لأننا نعانيه بعد أن اعتدنا أطيب الطعام . » فقالت له الشجرة : « مهلاً يا عليّ ، فحظُّكَ الحسنُ لم يَنْتَهِ بَعْدُ . في نفس الحفرة ستجد عصا خذها إلى بيتك ، وركّز عليها بصرك ، وقل لها أنت وزوجتك : « طوفي ، طوفي ! » ابتهجَ عليّ والتقط العصا من الحفرة ، وأسرعَ إلى بيته وقبل أنْ يستردَّ أنفاسَهُ ، كان هو وزوجته قد ركزا بصرهما على العصا ، وقالا بصوت واحد : « طوفي ، طوفي . » وكان ما حدث هو آخرَ ما يتوقعانه ، فقد دَبَّتِ الحياةُ في العصا ، وبدأت تضربهما . وكلما حاولا الهربَ طاردتهما ، حتى كادت تقتلهما من الضرب . أخيراً انتبه عليّ وقال : « مهلاً ! مهلاً ! سآخذكِ

إلى الصائغ حيث أَخذتُ الهديتين السابقتين !
عندئذ سقطتِ العصا على الأرض . وما إن استطاع عليّ الوقوفَ على قدميه حتى حمل العصا وتوكّأً عليها إلى أن بلغ دكّانَ الصائغ . وقال له : « أريد أن تغطّي هذه العصا بالذهب ، حتى تصبحَ جديرةً بأن يحملها سلطان . » ابتسم الصائغُ وهو يفكّر في الكنز الجديد ، وفيما عسى أن يكون سرُّه . وقبل ان يغادرَ عليٌّ المحلَّ قال للصائغ : « احذرْ أن تركّز بصرك على العصا وأهمُّ من كلٍّ شيء لا تقلْ لها : « طوفي ! طوفي ! » ومضى وهو ما زال يتحسس ما أحدثته العصا من ألم . ولم يُضِع الصائغُ وقتَهُ سدىً . فركّز بصره على العصا وصاح فيها : « طوفي ! طوفي ! » فانقضّتْ عليه العصا فوراً وأوسعته ضرباً ، وكلّما حاول الهَرب منها طاردته . وأخيراً أمسك بالطاحونةِ السحرية وبالصحن السحريّ ، رجاءَ أن يكونا تعويذتين تنقذانِهِ من سحرِ العصا . وقد صحَّ حَدْسُهُ . فما إنْ أَمسك بهما

بيديه ، حتى توقفتِ العصا عن ضربه ، وما إن وضعهما على المنضدة ، حتى عادت العصا تلاحقه .

وكان الصائغُ رجلاً ذكياً ، فأدركَ أنه لن يستطيعَ الخلاصَ من العصا ، إلّا إذا أعاد الطاحونة والصحنَ إلى عليّ .



عن تونس

جمهورية عربية تقع على البحر المتوسط الذي يحدها من شماليها وشرقيها كما تتاخمها الجزائر من الغرب وليبيا من الجنوب الشرقي.

مساحتها: ١٥٤٥٣٠ كم٢

عاصمتها: تونس.

سكانها: ٦٧٥٠٠٠٠ نسمة.

اقتصادها: تحتل الزراعة المقام الأول فيها، وتعتمد على تربية الاغنام وصيد الأسماك واستخراج المعادن، وقد مُدت أنابيب للنفط من الجزائر إلى مرفا الصُخيرة التونسي.



رزحت تحت الاستعمار الفرنسي منذ عام ١٨٨١ م، نالت استقلالها عام ١٩٥٦ بعد نضال شاق قدَّم فيه الشعب تضحيات كبيرة. حُكمها الآن رئاسي جمهوري يعتمد نظام الحزب الواحد.

تحتل مركزاً جغرافياً مرموقاً، فهي نقطة الِتقاء بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط، وتشتهر بمكانتها السياحية

من حكايات الشعوب

مجموعة منتقاة من قصص الشعوب ، نتعرّف من خلالها على جانب من التراث الإنساني الفولكلوري . وعلى أجمل القصص التي ابتكرها خيال الإنسان ... هذا بالإضافة إلى معلومات عن البلد وموقعه من خريطة العالم ...

صدر من هذه السلسلة :

الطبعة الخامسة ، بيروت - ١٩٨٥

طباعة : مؤسسة دار الريحاني
ص.ب ١٢/٥٣٧٨ - تلكس RIDCO 41127 LE بيروت

السعر للمستهلك
ل.ل
٥٠٠

دار الفتى العربي
للنشر والتوزيع
كورنيش المزرعة . بناية الترك . تلفون ٣٠٤١١٠ . العنوان البرقي : دافنشر . بيروت . لبنان

